التقديم

ـ ١ ـ

صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب سنة ٢٠٠٧م عن دار الحوار بسوريا تحت عنوان «أدبيات النقد الذاتي في الفكر العربي». وكانت طبعة رديئة بكل المقاييس؛ فعلاوة على أن المحتوى المنشور لم يكن سوى «مسودة العمل» أرسلتها لأخذ الموافقة المبدئية على النشر كانت نوعية الورق رديئة جدا والإخراج سيّئاً. لقد كلفتني هذه الطبعة الرديئة الكثير من سمعتي العلمية وحتى الأخلاقية. وربما كانت رداءة الطبعة من ضمن العوامل التي دفعت المفكر الفلسطيني ماهر الشريف إلى «نهش» الفكرة العامة للكتاب و«السطو» على الكثير من أفكاره[١].

(١) راجع في هذا المجال مقال ماهر الشريف: «النكبة ومعناها في مرآة العقل النقدي» المنشور في مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد ١٩ العدد ٧٤ ـ ٧٥ (ربيع ـ صيف ٢٠٠٨م).

ولكي لا يكون اتهامنا له باطلاً نعرض على القارئ العناوين الفرعية لمقاله:

- التأكيد على أهمية ممارسة النقد الذاتي الشامل.
- إدراك وحدة الزمان واستيعاب عقلانية التاريخ.
- تأخر الداخل هو الذي يستقدم غزو الخارج.
- البحث عن جذور النكبة في التأخر الحضاري العربي.
- أين يتجلّى هذا التأخر الحضاري العربي؟
- كيف نتجاوز آثار النكبة؟

وبعض المقتطفات منه:

«... ولّدت النكبة في أيار ١٩٤٨م، والتي تجدّدت باسم النكسة في حزيران ١٩٦٧م، أدباً سياسياً عربياً، حاول منتجوه، من منطلقات فكرية متنوعة، وعي معناها ومعرفة أسبابها وتلمس السبل الكفيلة بتجاوزها».

«... وفي إطار هذا الأدب السياسي، برزت مقاربات نقدية قليلة، انطلقت من منطلقات حضارية أو حداثية، ورأت في النكبة نتيجة منطقية ومتوقعة للتأخر العربي، وحصيلة عقلانية لمواجهة طويلة بين مجتمعات عربية تقليدية، أو مفوّتة، وبين مجتمع يهودي حديث حظي بدعم الاستعمار الأوروبي».

«... كان قسطنطين زريق، في كتابه: معنى النكبة، الذي أصدره في آب ١٩٤٨م، هو أول من لجأ إلى منهج النقد الذاتي في مقاربة النكبة، ولم يفارقه في كل كتبه اللاحقة».

ونترك له المقارنة والحكم.

- ٢ -

ومع ذلك فقد كان الكتاب موضع اهتمام لا بأس به. فقد اهتمت به الكثير من المواقع والمجلات والصحف الورقية الإلكترونية نذكر منها على سبيل المثال موقع «الأوان» الذي نشر مقالاً تعريفياً بالكتاب بتاريخ ١٩ ماي ٢٠٠٧م، وجريدة العرب اللندنية التي نشرت بتاريخ ١٨ جوان ٢٠٠٧م مقالاً تقييمياً بعنوان «النقد لا يوقف مسيرة السقوط». كما كان مادة لمحاضرة بعنوان «عقل النكبة» ألقاها الباحث الفلسطيني سميح حمودة بقاعة بلدية بير زيت بدعوة من «الجمعية الفلسطينية للقراءة بالتعاون مع قسم الشؤون الثقافية في بلدية بيرزيت» وذلك يوم ١٠ ماي ٢٠٠٨م. وفي تونس نشر المرحوم الطاهر الهمامي (باحث وجامعي تونسي) مقالاً عن الكتاب بمجلة حقائق التونسية بعنوان «النقد الذاتي الذي قاد إلى الهزيمة». ولئن كانت قراءة الهمامي للكتاب قراءة تقريضية حيث كتب في مستهل مقاله «هذا كتاب في حجم كتب الجيب، يبدو ضامراً لا يملأ العين لمن اعتاد الأوزان الثقيلة يزن بها الكتب ويقيس قيمتها، لكنه كتاب مثير، وفيه تفكير وتدبير، يثير أسئلتك ويسحبك من يقينك ويسحب المخدة من تحت دماغك..»[1]. فإن سميح حمودة قد قدّم قراءة نقدية ملخصها «على الرغم من تميز الكتاب بمحاولته وضع موضوع النكبة في الإطار العقلي إلا أن المؤلف عانى من ضعف في المصادر

(١) مجلة حقائق (تونس) العدد ٤٦ من ١ إلى ١٤ أكتوبر ٢٠٠٧م ص٦٦.

التاريخية بما يخص القضية الفلسطينية... واستند إلى بعض الدراسات التي لم تتمتع بالعمق ولم يعط مساحة واسعة لمفكر مهم مثل قسطنطين زريق»[1].

ـ ٣ ـ

في خضم انشغالنا بإصلاح ما أفسدته دار الحوار وقع في أيدينا مقال باللغة الإنجليزية فيه تقييم لموقف المثقفين العرب من النكبة. ورغم أن المقال نشر في بداية السبعينات، ورغم قصره فقد فتح لنا بابا للزيادة وذلك من خلال الاطلاع على ثلاثة عناوين جديدة أضفناها إلى «نصوص النقد الذاتي» وهي على التوالي:

ـ أزمة الفكر العربي للدكتور إسحاق موسى الحسيني.

ـ أزمة التمدن العربي لمحمد وهبي.

ـ أزمة المجتمع العربي المعاصر لمدّثر عبد الرحيم الطيّب.

وقد ألزمنا ذلك مراجعة محتوى الكتاب في اتجاه مزيد تعميق الكثير من أفكاره خصوصاً في البابين الثاني والثالث (مضامين النقد الذاتي، ومعنى النقد الذاتي). كما ألزمنا إعادة ترتيب نصوص النقد الذاتي (الباب الأول) باعتماد مقياسين متداخلين هما: تاريخ النشر وحجم المدونة. أما المدخل التاريخي فلم نغيّر فيه شيئا رغم اطلاعنا المعمق على دراسات

(١) http://www. alhayat-j.com/details.php?opt=3&id=65894&cid=1152

مهمة جدا نذكر منها بالخصوص: «ألمانيا النازية وفلسطين» لعبد الرحمٰن عبد الغني، و«مفهوم القيادة السياسية في فلسطين في عهد الانتداب البريطاني» للدكتورة سناء محمد حمودي، و«مسألة اللاجئين جوهر القضية الفلسطينية» للدكتور واصف منصور. وذلك لنفس السبب الذي ذكرناه في مقدمة المدخل التاريخي وهو أننا لا نؤرخ للقضية الفلسطينية بقدر ما نبحث في قضية تهم الفكر العربي في علاقته بالنكبة.

النصوص الثلاثة التي أضفناها نعتبرها مهمة جداً وخصوصاً كتاب محمد وهبي، ومع ذلك فهناك نصوص كثيرة، ربما أكثر أهمية، لم ندرجها ضمن مدونة البحث. قسم من هذه النصوص لم نوفق في الاطلاع عليه من ذلك «طريق الخلاص» لجورج حنّا، «أعمدة النكبة» لصلاح الدين المنجّد، «بعد النكبة» لقدري حافظ طوقان، «العوامل الأساسية لكارثة فلسطين» لأبي الحسن الندوي... إلخ. ومع ذلك فلا نرى أن غياب هذه النصوص عن مدونة البحث قد أثّر على نتائج بحثنا فقد حصلت لدينا عنها فكرة من خلال الدراسات التي اهتمت بالموضوع. أما القسم الثاني من هذه النصوص ونعني نصوص نديم البيطار وصادق جلال العظم وياسين الحافظ وغيرهم فقد آثرنا عدم إدراجها وحجتنا في ذلك أن أصحاب هذه النصوص قد جمعوا في «نقدهم الذاتي» بين النكبة والنكسة. ولذلك فضلنا دراستها في الجزء الثاني من مشروعنا «أدبيات النقد الذاتي في الفكر العربي» الذي ننوي تخصيصه للنكسة.

المقدمة

- ١ -

حظيت القضيّة الفلسطينيّة باهتمام عدد كبير من الباحثين والدارسين والكتاب العرب والأجانب، وكان نصيب التاريخ والسياسة في هذه الدراسات أوفر من نصيب الفكر إذ لم ينل الجانب الفكري من القضيّة نفس الدرجة من الاهتمام رغم ما للقضيّة الفلسطينيّة من أثر على الفكر العربي.

وتمثّل النكبة الحلقة الرئيسيّة في هذه القضيّة فـ«ما سبقها يمهّد لها وما لحقها نتاج لها» على المستويين الفلسطيني والعربي. فهي لم تلهم أقلاماً كثيرة، شعراً وقصّة ورواية ومسرحاً وحسب، بل رأى فيها كثيرون الحدث الذي وجه الفكر العربي منذ منتصف القرن العشرين، فرأى البعض أنّها دشّنت عهد نهضة جديدة[١]،

(١) راجع في هذا المجال: مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط٥ دار الفكر سوريا ١٩٨٦م، ص١٠٧. ومن الجدير بالذكر أن المفكّر =

ورأى آخرون أنها ساهمت في تقوية التيّار التقليدي في الفكر العربي[١]. ومهما تكن طبيعة أثر النكبة في الفكر العربي فإنّ للقضيّة الفلسطينيّة عموماً «نكبة ونكسة» مكاناً مركزيّاً في تاريخ العرب المعاصر. ففي «تحقيبات» المفكرين العرب المعاصرين ما يؤكد ذلك:

يقسّم غالي شكري التاريخ العربي المعاصر إلى مرحلتيّن أساسيّتين يشكّل «زمن النكبة» حدّاً فاصلاً بينهما[٢]. ويقسّم حليم بركات هذا التاريخ إلى ثلاث مراحل تمثّل النكبة مرحلته الثالثة، «مرحلة الفكر التسويغي والبحث في الكارثة»[٣]. أمّا برهان غليون فقد قسّم هذا التاريخ إلى أربعة أزمنة يشكّل «زمن النكسة» زمنه الثاني[٤]. وأخيراً فإنّ التحقيب الذي استقرّ عليه أغلب المفكرين،

= السوداني محمد أبو القاسم حاج حمد قد اعتبر النكبة بداية ما سمّاه «العالميّة الإسلاميّة الثانية». راجع مقدمة كتابه «العالميّة الإسلاميّة الثانية جدليّة الغيب والإنسان والطبيعة». صدر هذا الكتاب في طبعته الأولى عن دار المسيرة في بيروت سنة ١٩٧٩م.

(١) عبد الله العروي، العرب والفكر التاريخي، ط٤، المركز الثقافي العربي، الدّار البيضاء، ١٩٨٨م، ص٢٢١ ـ ٢٢٢.

(٢) غالي شكري، أقواس الهزيمة، وعي النخبة بين المعرفة والسلطة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، د. ت. ص١٥.

(٣) حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر، بحث استطلاعي اجتماعي، ط٤، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت ١٩٩١م، ص٤٣٠.

(٤) برهان غليون، اغتيال العقل، محنة الثقافة العربية بين التبعيّة والسلفيّة، ط١، دار المعرفة، تونس، ١٩٨٩م، (الأزمنة الأربعة المذكورة هي عناوين أقسام الكتاب الأربعة).

يجعل «النكبة» حداً فاصلاً بين مرحلتين: مرحلة «النهضة»، ومرحلة «الثورة»[١].

يهتمّ عملنا أساساً بوجه من وجوه تأثير النكبة في الفكر العربي، فقد برز على إثرها قطاع هام من المفكرين الفلسطينيين والعرب لم تقنعهم الروايات الرسمية عن أسباب الكارثة وأبعادها، ورأوا في تلك الروايات تبريراً وتبسيطاً للأحداث وتملّصاً من المسؤولية. ومن ثمّ راح هذا الفكر يبحث في ما يعتبره أسباباً حقيقيّة للنكبة بعيداً عن الاستعمار ومؤامراته واليهود وقوّتهم. هذا ما عُرف «بالنقد الذّاتي».

- ٢ -

اعتبرت النكبة تحدياً قاسياً وجدّياً واجهه العرب في العصر الحديث وضع وجودهم وكيانهم موضع شك. وقد كان لها تأثير ملموس وفوري في أهمّ مجالات الحياة العربيّة، ففي المجال السياسي وردّا على تخاذل الأنظمة العربية في حماية فلسطين تمّ اغتيال رئيسَيْ وزراء مصر ولبنان، والملك عبد الله، ملك الأردن، كما أطيح برئيس سوريا وملك مصر إثر انقلابين عسكريين. وبالجملة «ألهبت النكبة الوطن العربي كلّه بنار الكفاح والعروبة، فقامت الثورات العظيمة في القاهرة والجزائر وبيروت وبغداد واليمن».

(١) Mohamed Arkoun: *La pensée Arabe:* Que sais - je? PUF Paris, 1975, P 105.

أمّا فكرياً فلم يكن تأثير النكبة أقلّ دويّاً من تأثيرها السياسي، فإذا كان السياسيون قد حمّلوا «الحكّام التقليديين والرجعيين» مسؤولية النكبة فإنّ المفكرين قد حمّلوا الوجود العربي كلّه، واقعه وماضيه، مسؤولية ما حصل، فسارعت الأقلام في شتّى المجالات ترد على النكبة شعراً وقصّة ومسرحاً[1] حتى إن هناك من يرى، على خلاف غالبية نقاد الأدب، أن ظهور الشعر الحرّ في تلك الفترة قد كان بتأثير النكبة[2]. ورأى «النقد الذاتي»، كما سنرى ذلك لاحقاً، أنّ النكبة قد أيقظت الفكر العربي من جموده وأطلقته من قيوده فانبرى يجدد ويبدع مؤسساً لنهضة جديدة.

ومع ذلك لم يحظ هذا الفكر الناقد بما يستحقه من عناية، فعندما استقرّ رأينا على دراسة «أدبيات النقد الذاتي في الفكر العربي من النكبة إلى غزو بيروت» تصورنا أن الدراسات حول الأبعاد الفكرية للنكبة ستكون على قدر غزارة الدراسات حول النكسة. ولكن البحث لم يفض بنا إلّا إلى القليل من الدراسات. ويعود هذا النقص إلى سببين:

ـ تتالي النكبات والهزائم على العرب بحيث أنست النكسةُ

(١) انظر جرداً لبعض ما كتب من شعر وقصّة ومسرح بتأثير النكبة في: كامل السوافيري، الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين من ١٩١٧م إلى ١٩٥٥م، ط١، مكتبة نهضة مصر، القاهرة ١٩٦٤م (المقدّمة ص٩ ـ ٣٣).

(٢) صالح الأشتر، في شعر النكبة، ط١، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦٠م، ص٨٧ وما بعدها.

النكبة وغزوُ بيروت النكسة وغزوُ العراق غزو بيروت وهكذا دواليك. ومما يزيد في تعميق هذا النسيان للنكبة على حساب النكسة هو «الحرب العربية الباردة» حيث تمّ التركيز على النكسة في إطار «تصفية الحساب» مع مصر الناصريّة بالخصوص.

ـ سعي الأوساط الإعلاميّة والسياسيّة الصهيونية والغربية إلى تجاهل أصول القضية الفلسطينيّة وجذورها والتركيز بدل ذلك على ما يسمّيه إدوارد سعيد «الاستجابات البراغماتية الواقعية التكتيكيّة للمشكلة في الحاضر». وقد انخرط العرب والفلسطينيون في هذا «السعي غير حميد العواقب» خصوصاً بعد انطلاق ما عرف بعمليّة «التسوية السياسيّة».

ـ ٣ ـ

دعانا بحثنا إلى الاطلاع على خمسة نصوص ذات علاقة بعملنا. ونحن نقدمها ملّخصة ومرتّبة حسب تواريخ صدورها.

١ ـ أنيس صايغ، فلسطين والقوميّة العربيّة[١]:

ما يعنينا من هذا الكتاب هو بابه الرابع (نكبة فلسطين والعرب)، ففي سياق دراسة المؤلف للمظاهر الرئيسيّة لآثار النكبة التي انعكست على الأوضاع العربيّة عرّج على ما ظهر من أدب (بالمعنى العام للكلمة) بُعيد النكبة ليختار منه أربع دراسات حتى

(١) صدر الكتاب ضمن سلسلة أبحاث فلسطينيّة رقم (٣) عن مركز الأبحاث ـ منظمة التحرير الفلسطينيّة، بيروت ١٩٦٦.

«نأخذ بواسطتها فكرة شاملة عن رأي الفكر العربي بالنكبة. وكانت هي في الواقع أول أربعة كتب ظهرت في الموضوع» (ص١٠٩). وقد حرص المؤلف على أن تكون هذه الكتب ممثلة للفكر العربي بعد النكبة (المؤلفون الأربعة ذوو اتجاهات سياسيّة وعقائديّة وفكريّة ومهنيّة متنوّعة). الكتب الأربعة هي: «معنى النكبة» لقسطنطين زريق، و«عبرة فلسطين» لموسى العلمي، و«بعد النكبة» لقدري حافظ طوقان، و«طريق الخلاص» لجورج حنّا. أما محتوى هذه الدراسات فقد لخّصها المؤلف في نقطتين رئيسيتين (ص١١٠ ـ ١١١):

ـ أن نكبة العرب في فلسطين ليست نكبة سياسيّة آنيّة بل هي نكبة شاملة تكاملت فيها مجموعة عوامل وظروف بعيدة في المجتمع العربي.

ـ أن الحل ليس سياسيّاً آنيّاً سريعاً بل هو تكامل مجموعة من الإجراءات التي يجب أن يتعاون على تحقيقها أبناء القطاعات المختلفة من الشعب (تحرير الإنسان العربي وخصوصاً المرأة، تصنيع المجتمع، وحدة العرب، إلخ...).

٢ ـ علي هلال الدسوقي: المثقفون العرب والنكبة: البحث عن الحلول الجذرية[١]:

المقال في الأصل ورقة عمل تقدّم بها صاحبها إلى الملتقى

(١) Ali E. Hillal Dessouki; Arab intellectuals and Al - Nakba: The Search for Fundamentalism; Middle Eastern Studies, Vol. 9, No 2 (May, 1973), pp187-195. Published by: Taylor and Francis. Ltd

السنوي الرابع الذي نظمته جمعية الدراسات الشرق أوسطية بأمريكا الشمالية (The middle East Studies Association of North America) الذي انعقد بمدينة كولمبوس Columbus بولاية أوهايو Ohio بالولايات المتحدة الأمريكية في شهر ماي من سنة ١٩٧٣م.

بدأ الدسوقي مقاله يشتكي من قلة الدراسات العربية حول موقف المثقفين العرب من النكبة في مقابل وفرة الدراسات الإسرائيلية في الموضوع. ثم ذكر الهدف الرئيسي لمقاله وهو «تحليل الاتجاهات الفكرية العديدة التي برزت من خلال كتابات المثقفين العرب عن النكبة وعلاقة ذلك بتطوّر الفكر العربي المعاصر». ثم انطلق بعد ذلك في تحديد الكلمات المفاتيح في مقاله وهي «النكبة» و«المثقفون» فبيّن أن عبارة «النكبة» استعملها لأول مرة الدكتور قسطنطين زريق سنة ١٩٤٨م، وهي تشير في معناها العام إلى المواجهة الشاملة التي تطوّرت منذ العقود الأولى للقرن العشرين بين الصهيونية والعرب عامة والفلسطينيين خاصة، وقد تجسدت في الصراعات العسكرية بين الطرفين منذ ١٩٤٨م، مروراً بالعدوان الثلاثي، وانتهاء بالنكسة. هذه المواجهة شاملة للاقتصاد والاجتماع والسياسة والعسكر والتكنولوجيا وهي في النهاية استمرار للصراع بين المجتمعات العربية المتخلفة والمجتمع الصهيوني الحديث. أمّا «المثقفون» فقد استثنى منهم أولئك الذين فسّروا النكبة باعتبارها حدثاً عادياً أو عرضياً، وكذلك أولئك الذين فسّروها تفسيراً تآمرياً (تحميل الصهيونية وبعض الدول الغربية مسؤولية ما حدث). ومن ثمّ ركّز عمله على أولئك الذين

فسّروا النكبة بعوامل تاريخية بعيدة المدى؛ أي: أولئك الذين ربطوها بالسياق الحضاري العام (ص١٨٨). ثم صنّف أولئك المثقفين ثلاث مجموعات ومواقف:

أ ـ الموقف الليبرالي العلماني:

هذا الموقف يمثله بالخصوص قسطنطين زريق الذي نشر في شهر أوت من سنة ١٩٤٨م كتابه الشهير «معنى النكبة» الذي أكّد فيه أن انتصار الصهيونية على العرب يعود إلى تفوّق نظامهم الاجتماعي الحديث، وأنه لا يمكن للعرب الانتصار عليها طالما لم يغيّروا أوضاعهم تغييراً جذرياً. نفس هذا الموقف عبر عنه بعد سنتين قدري حافظ طوقان في «بعد النكبة» وبعد ثماني سنوات محمد وهبي في «أزمة التمدن العربي» (ص١٨٩).

ب ـ الموقف الديني الإسلامي:

مرجع أصحاب هذا الموقف هو الإسلام الذي جعل من العرب قوة وحضارة، ولكنهم ارتدوا اليوم إلى الجاهلية كما يعتقدون. يمثل هذا الموقفَ ثلاثةُ كتب هي على التوالي «أعمدة النكبة» لصلاح الدين المنجّد الصادر سنة ١٩٦٧م، و«أخطر من النكبة» لمحمد جلال كشك الصادر سنة ١٩٦٧م، و«ما بعد النكبة» من منشورات اتحاد الطلبة المسلمين بأوروبا سنة ١٩٦٨م. وقد أجمعت هذه المؤلفات على أن سبب الهزيمة هما الخياران الليبرالي (النكبة) والاشتراكي (النكسة)، وعلى أن الحل يكمن في العودة إلى الإسلام (صص١٨٩ ـ ١٩٠).

ج ـ الموقف الاشتراكي الثوري:

الممثلان الرئيسيان لهذا الموقف هما صادق جلال العظم في كتابه «النقد الذاتي بعد الهزيمة» الصادر سنة ١٩٦٨م، ونديم البيطار في كتبه الثلاثة «الإيديولوجيا الانقلابية» (١٩٦٤م) و«الفعالية الثورية في النكبة» (١٩٦٥م) و«من النكسة إلى الثورة» (١٩٦٨م). ملخص موقفهما أن الثورة العربية المعاصرة هي المسؤولة عن الهزيمة لأنها ركزت على البعد السياسي وأهملت الأبعاد الأكثر تحديدا لمصير الثورة، وهي الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية أي: أنه تم تثوير السياسة مع الحفاظ على الإطار التقليدي للمجتمع والاقتصاد. (صص١٩٠ ـ ١٩١).

بعد استعراض الدسوقي لهذه المواقف خلص إلى أن دراسته لمختلف ردود المثقفين على النكبة مكنته من افتراض أنه مع تعمق الأزمة في فلسطين والوطن العربي فإن الاستقطاب سيكون مستقبلاً بين الإسلام والفكر الثوري؛ لأن الفكر العربي الحديث فشل في التأليف المثمر بين الإسلام الذي يشكل ديانة الغالبية العظمى من العرب والحداثة مجسدة في العلوم والثقافة الغربية الحديثة.

٣ ـ ماهر الشريف، البحث عن كيان: دراسة في الفكر السياسي الفلسطيني (١٩٠٨ ـ ١٩٩٣)[١]:

استعرض المؤلف في القسم الثاني من الكتاب (من النكبة إلى الوحدة) مواقف تيّارات الفكر السياسي الفلسطيني الثلاثة من

(١) ط١، مركز الأبحاث الاشتراكيّة في العالم العربي، قبرص، ١٩٩٥م.

النكبة، وهي على التوالي: الفكر القومي، والفكر الشيوعي، والفكر الإسلامي:

■ **النكبة ومعناها في فكر التيار القومي**: اقتصر المؤلف ـ أو كاد ـ على استعراض موقف حزب «البعث» الذي يرى، استنادا إلى كتاب المفكر القومي قسطنطين زريق «معنى النكبة» أنّ المأساة الحاصلة في فلسطين هي إحدى النتائج الطبيعيّة للتجزئة ولوضع المجتمع العربي القائم على الظلم والجهل والاستعباد (ص٥٠).

■ **النكبة ومعناها في فكر التيار الشيوعي**: اكتفى المؤلف في هذا المستوى بالتذكير بمواقف الشيوعيين العرب المساند لقرار التقسيم وبموقفهم القائل بأن النكبة هي نتيجة تحالف الحكام العرب مع القوى الاستعماريّة الغربيّة وبأنّ الحلّ يكمن في التحالف مع الطبقة العاملة اليهودية في فلسطين (ص٥٦ ـ ٦٠).

■ **النكبة ومعناها في فكر التيار الإسلامي**: يمثّل هذا التيار حسب المؤلف، جماعتان هما «الإخوان المسلمون» و«حزب التحرير الإسلامي». ويرى هذا التيار أن النكبة حصلت نتيجة تحالف الصليبية المسيحية واليهودية العالمية مع الحكومات العربية (ص٥٩ ـ ٦٢).

٤ ـ عبد الله عبد الدايم، نكبة فلسطين عام ١٩٤٨م: أصولها وأسبابها وآثارها السياسيّة والفكريّة والأدبيّة في الحياة العربيّة[١]:

ما يعنينا من هذا الكتاب هو التصدير والفقرة الثالثة من

(١) ط١، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٨م.

الفصل الرابع (أثر حرب ١٩٤٨م في الأدب والفكر العربي قبل ١٩٦٧م). نفهم من التصدير أن الكتاب كتب عام ١٩٧٤م بتكليف من مركز الدراسات الفلسطينية، ولأسباب عديدة أهمّها الحرب الأهلية اللبنانية لم ينشر الكتاب إلّا أواخر التسعينات. وربما أراد المؤلف بذلك استباق القارئ إلى أية ملاحظات «سلبية» قد يبديها بشأن محتوى الكتاب.

قدّم المؤلف في التصدير موضوع كتابه، وممّا جاء فيه حول الآثار الفكرية للنكبة قوله: «فنكبة فلسطين عام ١٩٤٨م كشفت عن مواطن الضعف في الوجود العربي الذي سبقها. وقد أدّى ذلك إلى مراجعة فكرية نقديّة واسعة تجلّت في الأدب والنتاج الفكري كما أدّت إلى ردود فعل صارخة على الأوضاع والنظم السياسيّة التقليديّة التي كانت سائدة، والتي كانت من أهم أسباب النكبة» (ص١٦).

ثمّ استعرض في الفصل الرابع أثر النكبة في القصة والمسرح وفي الشعر ثمّ أخيراً في الفكر. وقد تناول التأثير الفكري في مستويين:

■ عرض في البداية ما سمّاه «السمات العامة التي رافقت حياة الفكر بعد النكبة» وقد حدّدها في خمس سمات هي على التوالي: عُلوّ صوت المفكرين فوق صوت السياسيين والزعماء التقليديين، صراع إيديولوجي كبير وعنيف بين المفكرين واحتواء السياسيين لهم، تبعيّة الفكر العربي إلى حدّ كبير للأنظمة

السياسيّة، جرأة بعض الأقلام وإن كانت جرأة تقف عند نصف الحقيقة بحكم الواقع السياسي آنذاك، وأخيراً توصّلُ هذا الفكر بصورة عامّة إلى هزّ صورة الحياة القديمة وإبراز عجز الصيغ الفكرية العتيقة (ص١٤٦ ـ ١٤٨).

■ عرض بعد ذلك ملخصاً مختصراً ومركزّاً لمحتوى أربعة نصوص فكرية هي ردود على النكبة معتبراً إيّاها من «أهمّ معالم الفكر العربي بعد النكبة» ومعتذراً في نفس الوقت عن استقصاء سائر المعالم (ص١٤٨). ولكنه عاد في ما بعد ليبرّر عدم استقصائه لبقيّة المعالم بكونها «لا تخرج عن إطار الدراسات التي وقفنا عندها» (ص١٦٠). أما النصوص/المعالم فهي على التوالي: «عبرة فلسطين» لموسى العلمي، و«معنى النكبة» لقسطنطين زريق، و«النكبة والبناء» لوليد قمحاوي، و«الفعالية الثورية في النكبة» لنديم البيطار.

٥ ـ عبد القادر ياسين، الإفلات من فخّ النكبة[١]:

ميزة هذا الكتاب مقارنة بالكتب الثلاثة السابقة أنه تمحض بالكامل لدراسة ردود الفعل الفكرية الفلسطينيّة والعربية على النكبة. ومن ثمّ بناه صاحبه على فصلين:

أ ـ الفكر الفلسطيني والبحث في أسباب النكبة:

قسم المؤلف هذا الفكر إلى معسكرين:

(١) ط١، المركز الوطني للدراسات والتوثيق، غزّة، فلسطين، ٢٠٠٠م.

■ **المعسكر التقليدي**: يمثل هذا المعسكر «الهيئة العربيّة العليا» الممثّل الرسمي آنذاك للحركة الوطنيّة الفلسطينيّة. ولعرض موقف هذا المعسكر استند إلى أربعة كتب هي: «حقائق عن قضية فلسطين» للحاج أمين الحسيني، و«القضية الفلسطينيّة» لأكرم زعيتر، و«من أثر النكبة» لمحمد نمر الخطيب، و«عبرة فلسطين» لموسى العلمي. ملخص موقف هذا المعسكر من النكبة أنّ هناك عاملين سبّبا هذه النكبة، عاملاً خارجيّاً تمثّل في تأييد القوى الغربيّة للمشروع الصهيوني تأثراً بالتوراة وثأراً من العرب منذ الحروب الصليبيّة (ص٦)، وعاملاً داخليّاً يتلخص في وهن الأمة المتجسّد في تخاذل الدول العربية وفقدان القيادة العسكريّة والخضوع للأجنبي وشيوع الغفلة والاتكال والتخاذل... (ص٦).

■ **القوى الجديدة**: يمثّلها، حسب المؤلف، اليسار بشقيّه الاشتراكي والقومي. وهي القوى التي برزت على أنقاض القيادة التقليديّة التي «ذهبت تحت أنقاض النكبة». ولاستكشاف موقف هذه القوى الجديدة عاد المؤلف إلى الكتب التالية: «هكذا ضاعت وهكذا تعود» لنقولا الدرّ، و«النضال الفلسطيني: دروس وعبر» لعبد الوهاب الكيّالي، و«المقاومة العربية في فلسطين» لناجي علوش، و«القضية الفلسطينيّة في الواقع العربي» لعودة بطرس عودة، و«النكبة والبناء» لوليد قمحاوي، و«جذور القضية الفلسطينية» لإميل توما. أما تفسير هذه القوى الاشتراكية والقومية للنكبة فيعود كذلك إلى عاملين أحدهما خارجي والآخر داخلي. يتمثّل العامل الخارجي في الاستعمار و«عدم مواتاة الوضع الدولي

ما بين الحربين العالميتين لانتصار حركات التحرير الوطني» (ص١٠). ويتمثّل العامل الداخلي في نفس العوامل التي أشار إليها المعسكر التقليدي مع عاملين إضافيين هما المعسكر التقليدي في الحركة الوطنية الفلسطينية والموروث التاريخي فليست النكبة سوى «مجرّد حلقة من حلقة النكبات التي طوّقت الوطن العربي على مدى ثلاثة عشر قرناً» (ص١٢).

وختم المؤلف هذا الفصل الأول بإبداء رأيه في الموضوع، فقد تبين له بعد عرض مواقف الفكر الفلسطيني من النكبة أنّ السبب الرئيسي في ما حصل يعود إلى «خلل فادح في البنى الاقتصادية والاجتماعية والسياسيّة والعسكريّة والعلميّة العربيّة قبع خلف هذه النكبة وكان علّة وقوعها بعد الاستعمار والصهيونيّة اللذين قاما بواجبهما في هذا الخصوص على أتمّ وجه مما يحتّم علينا إيرادهما ضمن أسباب النكبة» (ص١٥).

ب ـ نكبة فلسطين في الفكر العربي:

تناول المؤلف موقف الفكر العربي من النكبة انطلاقاً من التقسيمات الإيديولوجيّة والسياسيّة المعهودة (الفكر الديني والفكر القومي والفكر الشيوعي... إلخ).

■ **الفكر الديني والنكبة:**

مثّل هذا الفكر حسب المؤلف «الإخوان المسلمون» والمفكر الهندي أبو الحسن علي الندوي في كتابه «العوامل الأساسيّة لكارثة فلسطين». أسباب النكبة حسب هذا الفكر

يتقاسمها الحكام العرب وشعوبهم على قدم المساواة، الحكام بظلمهم وجورهم وتخاذلهم والشعوب بتقاعسها وأنانيتها «وقلّة التضحية في شيء من مالها» (ص١١ ـ ٢٠).

■ **الفكر القومي والنكبة:**

يمثل هذا الفكر حسب المؤلف القوميون العرب (الناصريون والبعثيون) من خلال «فلسفة الثورة» لجمال عبد الناصر و«في سبيل البعث» لميشيل عفلق و«معنى النكبة» لقسطنطين زريق. ويرجع هذا الفكر النكبة إلى الأسباب التالية (ص ص٢٠ ـ ٣٢):

ـ الفساد الداخلي (تخلف الشعب وتخاذل الحكام...).

ـ الإقطاع العربي باعتباره طبقة في خدمة الاستعمار.

ـ التسلط الاستعماري.

ـ التجزئة.

■ **الأحزاب الشيوعيّة العربيّة والنكبة:**

استند المؤلف، لاستجلاء موقف الشيوعيين العرب من النكبة إلى أدبيات الحزبين الشيوعيين المصري واللبناني وإلى المفكر الشيوعي اللبناني حسين مروه. والملاحظ أنّ المؤلف قد اجتهد في «تفسير» موقف الشيوعيين العرب المساند لقرار التقسيم في محاولة للتخفيف من حدّة النقد الذي وجّه لهم. ثم استعرض موقفهم من النكبة الذي يرجع أسبابها إلى:

ـ الارتجال السياسي.

ـ غياب وحدة الصف.

ـ الاستهانة بالعدو.

ـ غياب الديموقراطية والحرية.

ـ غياب العلمانية.

ـ الاستعمار.

ـ الإقطاعية والهوس الديني والروحاني.

ـ تنازع الحركة الوطنية الفلسطينية بين تيارين، تيار يدعو إلى قرار فلسطيني مستقل وآخر يدعو لجعل القرار الوطني الفلسطيني قراراً عربياً بالكامل مما أدى إلى إضعاف الموقف الفلسطيني (ص٣٣ ـ ٣٧).

■ **التقليديون العرب والنكبة:**

يقصد المؤلف بذلك موقف عبد الرحمٰن عزام رئيس جامعة الدول العربية آنذاك، وموقف محمد علي علوبة أحد رموز حزب الأحرار الدستوريين المصري.

وملخص هذا الموقف تبرئة الجامعة العربية من تهمة التخاذل في قضية فلسطين وردّ الخلافات التي تفشت بين الزعماء العرب آنذاك إلى حالة التفكك التي كانت تعاني منها الأمة العربية (ص٣٨).

خلاصة:

لئن وفرت لنا هذه الدراسات مداخل منهجية هامة وحصل لنا منها بعض الاستنتاجات فإننا قد لاحظنا فيها مواطن قصور شديدة تتمثّل في أنّها:

ـ مجرّد رصد عام لتأثير النكبة في الفكر العربي.

ـ لم تستند في استنتاجاتها إلى دراسة معمقة للنصوص، وإنما اعتمدت في غالبيّتها على «توصيفات» سياسيّة جاهزة ومسبقة (الفكر التقليدي، الفكر القومي، الفكر الشيوعي...).

ـ قد خلط بعضها بين مواقف المفكرين ومواقف السياسيين.

ـ قد جمع بعضها بين ردود المثقفين على النكبة وردودهم على النكسة.

ـ لم تُثبت تناسباً بين حجم النصوص المدروسة وحجم الاستنتاجات المستخلصة منها بحيث بدت الاستنتاجات (السمات العامة للفكر العربي) أكبر من حجم المدوّنة المدروسة.

ـ ٤ ـ

إنّ أول سؤال طرحناه على أنفسنا عندما دخلنا غمار «النقد الذاتي بعد النكبة» تعلق بالمدوّنة. فلقد لاحظنا محدوديّة عدد النصوص التي اعتمدت في النصوص آنفة الذكر (قرابة العشرة عناوين) مع التركيز على ثلاثة أو أربعة نصوص هي في النهاية «النص الأساسي» المعتمد في هذه الدراسات. وقد أدّى بنا البحث إلى «اكتشاف» نصوص لم تدرج سابقاً ضمن «مدونة النقد الذاتي بعد النكبة» بل لم تقرأ على أنّ لها علاقة مباشرة بالنكبة وبالقضيّة الفلسطينية. إنها نصوص مالك بن نبي وخالد محمد خالد. وقد لاحظنا من ناحية أخرى أنه بقدر ما كان كتاب «معنى النكبة» لقسطنطين زريق حاضراً في النصوص الخمسة التي أشرنا

إليها فإنّ بقية نصوصه الصادرة ما بين النكبة والنكسة كانت غائبة. لقد كتب زريق عن التاريخ وعن الحضارة وعن العصر وعن الغد. فهل لهذه المؤلفات علاقة بـ«معنى النكبة»؟ وما علاقة هذه النصوص بالقضية الفلسطينية؟ صحيح أن بعض الدراسات قد ألمحت إلى وجود مثل هذه العلاقة[1]. ولكن لم يبذل جهد واضح في بيان الخيط «السميك» الرابط بين «معنى النكبة» و«نحن والتاريخ» و«في معركة الحضارة» و«هذا العصر المتفجر» و«أيّ غد؟».

أفضى بنا البحث في علاقة مبحث التاريخ والحضارة لدى قسطنطين زريق بالنكبة إلى طرح نفس السؤال عن علاقة ما كتب ونشر من مؤلفات عن الحضارة والتاريخ والإنسان في النصف الثاني من الخمسينات وفي الستينات بالقضية الفلسطينية عموماً والنكبة تحديداً. («الحقيقة الحضارية» لجورج حنّا و«التغيير الحضاري وتنمية المجتمع» لمحيي الدين صابر و«الإسلام والحضارة الغربية» لمحمد محمد حسين... إلخ).

وهكذا انتهى بنا البحث في المدونة إلى صنفين من نصوص النقد الذاتي بعد النكبة: نصوص النكبة ونصوص «ميتافيزيقا النكبة».

---

(١) انظر على سبيل المثال: عبد الله العروي، العرب الفكر التاريخي، ص٩٥، وبن مزيان بن شرقي، تجديد الوعي التاريخي العربي مهمة الجيل القادم، قراءة في فكر قسطنطين زريق، منشور ضمن، قراءات في الفكر العربي، ط١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٣م، ص١٥٢.

نصوص النكبة هي الردود المباشرة التي صدرت بُعيد النكبة وبحثت في ما اعتبرته الأسباب الذاتية التي أدت إلى الكارثة. وقد تم تتبع هذه الأسباب أو هذه الحلقات المترابطة من «الأخطاء الذاتية» انطلاقاً من السياسة باتجاه المجتمع ومن الواقع باتجاه تاريخه ومن التاريخ باتجاه الحضارة. وهكذا امتد مجال البحث إلى ما وراء السببية التاريخية؛ أي: البحث عن الأسباب التي لا تدخل ضمن مجال الواقع العربي المعاصر وحتى الحضارة العربية الإسلامية، فهناك عناصر متسلسلة إذا ما تتبعناها وجدنا أنفسنا خارج المجال المدروس. بهذه الكيفية استقرت أسباب النكبة في خاتمة المطاف في «قضية حضارية أو إنسانية كبرى» (الطبيعة الشريرة للإنسان، انحراف الحضارة الإنسانية عن قيمها الأصلية، الحتمية التاريخية أو «المعنى الخفي للتاريخ»، الدورات الحضارية... إلخ). هذا ما نعنيه بـ«ميتافيزيقا النكبة».

إن نصوص النقد الذاتي قد انطلقت بالبحث في أسباب هزيمة عسكرية مدوية وانتهت بالبحث في قضايا حضارية فما كان في الأول هزيمة عسكرية وسياسية انتهى إلى «قاعه الحضاري». فأيّة علاقة بين الحرب والحضارة؟ وأية علاقة بين الحرب والتاريخ؟ وكيف نرتب العلاقة بين الثالوث: حرب/تاريخ/حضارة؟

وبالفعل أبانت لنا دراسة هذه النصوص باعتبارها وحدة موضوعية أن أصحابها من «أهل النقد الذاتي» قد اعتبروا نكبة فلسطين بما هي هزيمة عسكرية، بمثابة تحدّ حضاري كان على

العرب والمسلمين أن يستجيبوا له. وكانت الاستجابة في شكل «دورة حضارية جديدة». ولم يكن من الممكن فهم هذه الدورة الحضارية إلا بوضعها في سياق تاريخي، فقد جاءت النكبة لتغلق مرحلة تاريخية مظلمة كانت قد بدأت لدى البعض بسقوط دولة الموحّدينّ ولدى البعض الآخر بوفاة الرسول ﷺ. وتدعم هذا «الظلام التاريخي» بالهيمنة الاستعمارية العثمانية والغربية في العصور الحديثة بحيث بدت النكبة نتيجة انحطاط تاريخين اثنين: تاريخ العرب والمسلمين الذين ارتدّوا إلى حياة البداوة وقيم «الجاهلية الجهلاء»، وتاريخ الغربيين الذين ارتدّوا بدورهم بعد «النهضة» و«الأنوار» إلى البربرية.

ورغم هذا «العمق» في فهم عوامل النكبة وأبعادها فإنّ هذا النقد لم يغيّر شيئا من واقع العرب ولم يمنع حدوث نكسة ١٩٦٧م. فأين الخلل؟

يكمن الجواب في ما سميّناه «التفكير الخاطئ» في النقد الذاتي، فقد كان هذا النقد يدعو إلى الجرأة والعمق في تناول قضايا المجتمع والتاريخ والحضارة ولكنه كان في نفس الوقت «يحتفل» باشتراكية العسكريين الذين استولوا على السلطة آنذاك وكان يرى فيها «انقلاباً حضارياً جذريّاً أو دورة حضارية جديدة». لقد وقع هذا النقد مثل غيره في «غرام العسكر» وكانت النتيجة فكراً أو نقداً إيديولوجياً يحمل بداخله كلّ هنات الفكر الإيديولوجي باعتباره وعياً زائفاً.

ومع ذلك فلئن كانت نصوص النقد الذاتي في أغلبها كتابات إيديولوجية فإنها قد ساهمت في التأسيس «للجولة» الثانية من النقد الذاتي التي ستنطلق بعد «النكسة».

ـ ٥ ـ

لكي يبلغ بحثنا غايته قدّرنا أن يجري تفصيله على النحو الآتي:

ـ مدخل تاريخي، حرصنا فيه على تقديم خلاصة مركزة لتاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية طيلة نصف القرن السابق للنكبة، كما حرصنا كل الحرص على توجيه هذه الخلاصة نحو موضوعنا الرئيسي بما هو موضوع فكري حضاري وليس موضوعاً تاريخياً خالصاً.

ـ أربعة فصول:

■ قدمنا في الفصل الأول (**نصوص النقد الذاتي**) مدوّنة العمل، وكان دافعَنا إلى ذلك أمران هما:

ـ التعريف بالنصوص التي لم تقرأ سابقاً على أنها من ضمن «أدبيات النقد الذاتي بعد النكبة» ونعني بذلك، بصفة أساسيّة نصوص مالك بن نبي ونصوص خالد محمد خالد.

ـ تبيّن الخيط الرابط بين «نصوص النكبة» ونصوص «ميتافيزيقا النكبة».

■ قدّمنا في الفصل الثاني (**مضامين النقد الذاتي**) العوامل

الذاتية التي رآها النقد الذاتي سببا في النكبة. وقد تطلب منا ذلك استقصاء دقيقاً لهذه العوامل المبثوثة في النصوص. ونعني بالنقد الذاتي العوامل الذاتية لكل الوجود العربي التقليدي منه والحديث بحيث رأى هذا النقد أننا نكبنا في فلسطين لأننا نأكل كثيراً ولأن نساءنا يلبسن الكعب العالي «عدو الثورة»، ورجالنا يتعثّرون في العباءات ويزيّنون رؤوسهم بالطرابيش ولأن موسيقيينا يلحّنون التثاؤب وينغّمون التنهد، ولأنّ لغتنا ما زالت تفرّق بين المذكر والمؤنث، ولأننا ما زلنا نخلط بين الدين والسياسة... إلخ».

■ وخصّصنا الفصل الثالث (**معنى النقد الذاتي**) لتعريف النقد الذاتي. وإننا نزعم في هذا الباب تقديم مساهمة[1] لتعريف هذا الصنف من النقد. وقد استخلصنا هذا التعريف من نصوص النقد الذاتي نفسها، انطلاقاً من ملاحظات علال الفاسي في كتابه «النقد الذاتي»، وذلك عبر النظر في سماتها العامة التي تسمح لنا بتمييزها عن غيرها من النصوص، وخصوصاً نصوص مرحلة «النهضة».

■ أما الفصل الأخير (**نقد النقد الذاتي**) فهو تقييم لهذا النقد وبحث في علّة فشله، وقد وجدناها في جملة من الأفكار الخاطئة سمّيناها على التوالي «التفكير عسكرياً»؛ أي: بمنطق العسكريين

(١) في الحقيقة قام المفكر الفلسطيني الراحل هشام شرابي بمحاولة لتعريف هذا النوع من النقد وسماه «النقد الحضاري» (انظر كتابه: النقد الحضاري للمجتمع العربي في نهاية القرن العشرين، ط١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٠، ص ص٩ ـ ٣٢) إلا أن تعريفه تعلّق أساساً بالنقد الذاتي بعد النكسة.

الماسكين بزمام السلطة آنذاك، و«التفكير صهيونيا»؛ أي: الوقوع في حبائل الدعاية الصهيونية حول الإنجازات «المعجزة» للصهيونية واليهود في فلسطين، و«التفكير إيديولوجيا»؛ أي: قراءة التاريخ والحضارة العربيين والغربيين قراءة إيديولوجية لفائدة «دولة العسكر» لا بحثاً عن الحقيقة.

ـ ٦ ـ

أخيراً، لم نعد نرى فائدة في ذكر الصعوبات التي تعترضنا في إنجاز بحوثنا فقد أصبح الأمر من قبيل «شكاية أهل السنّة بما نالهم من المحنة»... ولكننا مضطرّون إلى استباق القارئ فنجيب مسبقاً عن بعض تساؤلاته. فعن مدونة العمل نجيبه بأننا لم ندخر جهداً في البحث عن نصوص «النقد الذاتي بعد النكبة». وعن اقتصار عملنا على المشرق العربي دون المغرب نجيب بأن نصوص النقد الذاتي في المغرب العربي تحتاج إلى بحث مستقل، ونأمل أن نتمكن من إنجازها يوماً ما.